تتحرك لتحرير الارض العربية من الاستعمار التركي ، والعودة بالانسان العربي الى هويته القومية ، كانت الرأسمالية الاوروبية قد تخطت في نموها نطاق استغلال الجماهير الكادحة بين شعوبها ، وبدأت البحث عن اسواق جديدة لتصريف منتجاتها وعن موارد وطاقات طبيعية وبشرية جديدة لاستغلالها . وفي هذه المرحلة بالذات ، ونتيجة لما افرزته الرأسمالية الاوروبية المستغلة من افكار وفلسفات وكردود فعل لها ، نشأت الحركة الصهيونية في صفوف الاقليات اليهودية مستندة الى نفس النوع من الافكار والفلسفات العنصرية والاستعمارية بعد ان البستها اقنعة زائفة باسم الدين والتاريخ لتبرر اهدافها العدوانية الاستعمارية .

واذا لم يشعر العرب ، في بداية يقظتهم ، بخطورة هذه الحركة على مصيرهم ، بحكم ضعفها آنذاك وعدم تركيزها على فلسطين او غيرها من الاقطار العربية كوطن مرتقب ، فانه كان عليهم مع ذلك ان يواجهوا عدوين شرسين في آن واحد : الاستعمار التركي المتداعي ، والاستعمار الاوروبي المتصاعد .

ولعل في هذه الحقيقة ، اي ثنائية العدو التي تعرض لها النضال العربي في تلك المرحلة ، ما يفسر كثيرا من اسباب التباين في الشعارات العربية النضالية التي ارتفعت حينذاك ، وما يوضح السبب الموضوعي الذي مكن للقيادات العميلة والخائنة في الوطن العربي من ان تركب موجات النضال الشعبي لتضعه في خدمة هذا الاستعمار ضد ذاك وبالعكس .

والواقع ان في قدرة المواطن العربي اليوم أن يسجل العديد من الاسباب التي ادت الى تعثر حركة النضال العربي في تلك الفترة من تاريخنا غير ان هذا سيدخلنا في تفصيلات لا مجال لها في هذه الدراسة الموجزة ، وكل ما يهمنا هو ان نسجل بأنه على الرغم من نجاح الاستعمار الاوروبي في الحلول محل الاستعمار التركي ، الا انه وجد نفسه ومع اول تماس مباشر له بالوطن العربي امام يقظة عربية عنيدة وفي مواجهة مقاومة باسلة . ولذلك فقد وجدت الحركة الاوروبية الاستعمارية ، وهي ترى بعينها تداعي الامبراطورية العثمانية وتفككها ، بأن عليها — تأمينا لمصالحها الاستغلالية الجشعة — أن تتهيأ مسبقا لجميع احتمالات اليقظة العربية وما قد يترتب عليها من قيام دولة الوحدة العربية على انقاض الاستعمار التركي .

ولا شك مطلقا ان الاستعمار الاوروبي ، ومن موقع التفوق العلمي والحضاري الذي كان يشغله آنذاك ، كان يدرك — وربما اكثر من العرب انفسهم — ما سيعنيه قيام دولة الوحدة العربية من تهديد خطير لواقعه ومستقبله . كما انه لا شك مطلقا ، قد رأى بعين المستقبل ، القيمة الستراتيجية الكبرى لدولة تمتد من المحيط الى الخليج ، تبسط هيمنتها على شواطىء البحر المتوسط الجنوبية كلها ، وتصل بين اقدم قارتين عرفهما التاريخ ، وتسيطر على أهم المداخل البرية والجوية والبحرية بين آسيا وافريقيا واوروبا ، وتحمل فوق ترابها شعبا عريقا له حضارة تاريخية نادرة ، وتحمل في باطنها من الثروات ما ندر أن يتوافر نوعا وكما في اي منطقة اخرى من العالم .

واستنادا الى هذه الحقائق ، ووعيا من الحركة الاستعمارية الاوروبية لها ، فان هذه الحركة ، منذ ان بدأت تضع اقدامها في هذه المنطقة في ظلال الخلافة العثمانية ، اعتمدت كل الوسائل المباشرة وغير المباشرة لتطويق الوعي الوحدوي وخنقه ضمن تخطيط استراتيجي معقد يقوم على اجهاض كل احتمالات الوحدة ووضع كل ما يمكن وضعه من العوائق على طريق تحقيقها .

وقد ارتكز هذا التخطيط الاستعماري الستراتيجي على خطين متكاملين ومتتاليين : اولهما ، تفتيت الوطن العربي وتجزئته الى دويلات وممالك ومشيخات هزيلة ، تحكمها عوامل الشك والفرقة المصطنعة . وثانيهما ، وهنا يدخل دور الحركة الصهيونية في المؤامرة الكبرى — باقامة حاجز بشري غريب عن اهل المنطقة ، فيكسر امتداد الوطن الواحد بين مشرقه ومغربه ويفصل الامة العربية الى شطرين متباعدين .